جامعة سوهاج

كلية التربية

المجلة التربوية

# الإِمَامُ الشَافِعِيُّ: تَكْوِينُهُ العَلْمِيُّ، وَفَلْسَفَتُهُ التَّرْبَوِيَّةُ

## إعداد

**أ.د/جمال رجب محمد عبد الحسيب**

**أستاذ أصول التربية، كلية التربية بأسيوط**

**جامعة الأزهر**

تاريخ استلام البحث : ٢٠ مايو ٢٠٢٣م – تاريخ قبول النشر: ٣١ مايو ٢٠٢٣م

**DOI: 10.12816/EDUSOHAG.2023.**

## مقدمة الورقة:

يُعتبر الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ من أبرز علماء المسلمين ذكرا، وأكثرهم تأثيرا وأثرا؛ حيث إن تراثه متعدد المجالات، ومتنوع التخصصات، ولا تزال أفكاره محل اهتمام، وآراؤه محل عناية بين عموم الأمتين العربية والإسلامية، لكن الفكرة السائدة عنه هي صورة الفقيه الأصولي، مع أن الشافعي صاحب إبداعات فكرية وافرة، وآراء تربوية رائدة، وممارسات تعليمية متميزة.

وقد ولد الشافعي(محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع القرشي)بمدينة غزة بفلسطين سنة ١٥٠هـ يتيما، فعادت به أمه بعد سنتين إلى مكة. وقد حفظ القرآن الكريم بها في سن السابعة، وحفظ موطأ الإمام مالك بن أنس في سن العاشرة، ثم اختلط بقبائل هذيل، فحفظ أشعارهم، وتعلم الأنساب، وأتقن العربية، وتفقه بمكة المكرمة على شيخ الحرم ومفتيه مسلم بن خالد الزنجي، وسفيان بن عيينة الهلالي. وتعلَّم الفقه الملكي على يد الإمام مالك ـ رحمه الله ـ بالمدينة المنورة، ولازمه ست عشرة سنة حتى توفي عام١٧٩هـ، ثم سافر إلى العراق، وقد اطلع على ما عند علمائه، وعرف محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة، وتلقى منه فقه أبي حنيفة، وناظره في مسائل كثيرة، وتعرف على علم أهل الرأي، ثم عاد بعدها الى مكة، وأقام فيها نحوا من تسع سنوات؛ لينشر مذهبه من خلال حلقات العلم في الحرم المكي، وتتلمذ عليه في هذه الفترة الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله. وعاد إلى بغداد سنة ١٩٥هـ في خلافة الأمين، وأصبح في هذه الفترة إمامًا له مذهبه المستقل، ثم رحل إلى مصر سنة ١٩٩هـ، ونزل بمدينة الفسطاط، ووضع مذهبه الجديد، وظل بمصر إلى أن توفي بها سنة ٢٠٤هـ. وقد اجتمع لدى الشافعي علما أهل الحديث وأهل الرأي؛ فأصَّل الأصول، وقعد القواعد، وأذعن له الموافق والمخالف، واشتهر أمره، وعلا ذكره. وسوف تتناول هذه الورقة محورين أساسيين، وهما: العوامل المؤثرة في التكوين العلمي للشافعي، وملامح الفلسفة التربوية لديه.

## أولا: العوامل المؤثرة في التكوين العلمي للإمام الشافعي:

عاش الإمام الشافعي في العصر العباسي الأول، والذي أطلق عليه العصر الذهبي؛ حيث كانت الخلافة الإسلامية عامرة بالعلم، حافلة بالعلماء، تموج بالتيارات العلمية، وتزدهر بالاتجاهات الفكرية. وقد توفرت للشافعي عوامل كثيرة ساهمت في تكوينه العلمي، وتتمثل أهم هذه العوامل فيما يلي:

### ١- الدعم الأسري وتوفر البيئة العلمية:

تعد الأسرة المحضن الأول للأفراد؛ فهي المؤسسة الأولى التي تستقبلهم، وتعمل على تشكيل شخصياتهم، والتأثير في ميولهم واتجاهاتهم، وتمثل جانبا أصيلا في التكوين العلمي لأولادها، وعاملا مهما في البناء المتكامل لشخصياتهم. وقد قامت أمُّ الشافعي بدور كبير في حياته، سواء من حيث بناؤه الفكري، أم تكوينه العلمي، أم تقديم الدعم الأسري اللازم له؛ حيث كان يتيما فقيرا، ولكن الله تعالي قيض له أمًّا عظيمة عوضته عن هذا اليتم؛ فأمُّه يمانية من الأزد، وعُرفت بُسرعة البديهة، والتَّمكن في الحوار والنِّقاش، وقد قالت له وهو طفل صغير:"يا بنيّ، مات أبوك وإننا فقراء، وليس لنا مال، وإني لن أتزوج من أجلك، وقد نذرتك للعلم، لعلّ الله أن يجمع بك شمل هذه الأمة". وحرصت على تحفيظه كتاب الله عزَّ وجلَّ وسنة نبيه ـ ﷺ ـ منذ الصِّغر، واهتمت بتنمية ذكائه وقدراته المتنوعة، فأرشدته لتعلم الفقه وسماعه، وشجعته على معايشة قبيلة هذيل، وكانت توجهه إلى تعلّم العربية الفصيحة، ومعرفة الأنساب، وحفظ الأشعار، وانعكس ذلك على فكره؛ حيث يقول:" إن الأسرة مسئولة في تربية أبنائها على تعلم الشعر وحفظه، ونقله ممّا يحبّب اللغة العربية للطفل". ويقول:" ولم يكن عند أمي ما تعطيني ما أتموَّل به، فرهنت دارنا".

وتقرر أدبيات البحث التربوي أنه لا بد لنجاح العملية التعليمية من توفر عدة مقومات، ومنها توفر البيئة العلمية المناسبة، والتي ينبغي أن تكون بيئة تفاعلية إيجابية مهيأة متكاملة. وقد توفرت للشافعي البيئة العلمية المواتية، والبيئة الدراسية المناسبة، فقد عاش في العصر العباسي الأول، والذي أطلق عليه العصر الذهبي؛ من حيث الاستقرار والازدهار، والتدريس والتأليف، والنقل والترجمة، والانفتاح على الحضارات الأخرى، فقد كانت الخلافة الإسلامية مترامية الأطراف، عامرة بالعلم، حافلة بالعلماء، تموج بالتيارات العلمية، وتزدهر بالاتجاهات الفكرية، وأخذت العلوم النقلية والعقلية تزدهر تحصيلا وتعليما وتأليفا، وتوفُّر مثل

هذه البيئة العلمية يشجّع العلماء على البذل والعطاء، ويحفّز طلاب العلم على جدية الطلب، ويؤدي إلى زيادة التحصيل، ويقود إلى التمكن العلمي.

**٢- تحديد الهدف ووجود الدافعية:**

يمثل تحديد الهدف عنصرا أساسيا في حياة الأفراد، وهو بمثابة البوصلة التي يهتدي بها الفرد في الوصول إلى ما يصبو إليه، فإذا أجاد الفرد في تحديد هدفه بدقة ووضوح؛ فإنه يصل إلى مراده، ويحقق أهدافه بأقصر الطرق الممكنة، وبأقل التكاليف المبذولة، ويصل إلى أفضل النتائج الممكنة. وقد حدد الشافعي هدفه تماما منذ صغره ونعومة أظافره، وذلك بمساعدة أمه له، وتوجيهه إياه؛ فقد رسم لنفسه طريقا محددا، وحدد لها منهجا واضحا؛ حيث يقول عن نفسه:" كانت همتي في: العلم والرمي، فنلت من الرمي حتى كنت أصيب من عشرةٍ عشرةً، وأما العلم فما ترون". وأما الفروسية فقد قال عنه الربيع بن سليمان:" كان الشافعي أشجع الناس وأفرسهم". كما أنه أراد لنفسه منذ البداية أن يكون عالما فقهيا، فانتهت إليه رئاسة الفقه والفتيا بعد موت شيوخه، وجمع بين مدرستي الرأي والحديث؛ حتى ذاع صيته في الآفاق، وسار يشار إليه بالبنان.

وتعتبر الدافعية من العوامل المهمة والشروط الأساسية في حدوث عملية التعلم؛ فهي تُعبّر عن القوى الداخلية التي تحرك سلوك الفرد، وتدفعه إلى ممارسة أي نشاط تعليمي؛ حيث إن إقبال الفرد على العملية التعليمية بدافعية ذاتية؛ يجعل عملية التعلم أكثر فعالية، ويسهم في جعل تفاعله أكثر إيجابية، ويولّد لدى المتعلم الإحساس بالذاتية والاستقلالية، ويؤدي إلى زيادة الإقبال على التعلم، وبذل الجهد الأكبر في التعليم؛ الأمر الذي يولد لديه الشعور بالرضا، والإحساس بالسعادة والإنجاز. وقد تجسّدت الدافعية الذاتية لدى الإمام الشافعي، وبرزت بصورة كبيرة في حياته كلها، وخاصة في سنواته الأولى، وظهرت في تنقلاته الميدانية ورحلاته العلمية؛ حيث إن الحرص الشديد على التعلُّم، والإرادة القوية في طلبه قد مكنته من زيادة التحصيل، وأوصلته إلى التمكن العلمي، ومواجهة العقبات، وتذليل الصعوبات. وآية ذلك أنه قد قيل للشافعي:" كيف شهوتك للعلم؟ قال: أسمع بالحرف مما لم أسمعه فتود أعضائي أن لها أسماعاً تتنغم به مثل ما تنغمت به الأذنان. فقيل له: كيف حرصك عليه؟ قال حرص الجموح المنوع في بلوغ لذته للمال. فقيل له: فكيف طلبك له؟ قال: طلب المرأة المضلّة ولدها ليس لها غيره".

**٣- المؤهلات الشخصية وعلو الهمة:**

**تمثل المؤهلات الشخصية لدى المتعلم أهمية كبيرة، وضرورة لازمة ينبغي توفرها، والتأكد من وجودها لدى المتعلمين قبل البدء في العملية التعليمية، وكلما كانت هذه المؤهلات الشخصية موجودة ومتوفرة؛ سهَّلت التحصيل الدراسي، ويسَّرت الوصول إلى الأهداف المبتغاة، وساهمت في جودة الأداء، وعملت على إتقان المحتوى التعليمي، وأدت إلى التفوق الدراسي والتمكن العلمي. وتشير هذه المؤهلات إلى مجموعة من السمات والمميزات الشخصية التي يتمتع بها الفرد، وقد تكون هذه المؤهلات فطرية موروثة، أو مكتسبة محصَّلة من البيئة المحيطة عبر التنشئة الاجتماعية. وينبغي على المعلمين أن يكتشفوا هذه المؤهلات الشخصية لدى المتعلمين؛ وذلك من خلال الاختبارات القبلية، والملاحظات الشخصية، والمقابلات الأكاديمية، والجلسات الفردية، ويعملوا على تفعيلها وتهذيبها وتوجيهها. وقد حصل الشافعي على النصيب الأكبر من هذه المؤهلات الشخصية، وحاز الأحظ الأوفر من هذه السمات؛ حيث حباه الله فطنة كبيرة وذكاء عظيما، ووهبه قدرة خارقة على الحفظ والاستظهار، وأعطاه إمكانية غير عادية على الحوار، وقدرة هائلة في المناظرة تأخذ بالألباب؛ حيث يقول عن نفسه:" كنت في الكتّاب أسمع المعلم يلقن الصبي الآية فأحفظها، فإلى أن يفرغ المعلم من الإملاء عليهم أكون قد حفظت جميع ما أملى، فقال لي المعلم ذات يوم لما رأى ذلك مني: لا يحل أن آخذ منك شيئاً". ويقول شيخ المالكية في مصر عبد الله بن الحكم:" ما رأيت مثل الشافعي وما رأيت أحداً أحسن استنباطاً منه".**

**تمثل الهمة العالية السبيل إلى تحقيق الأهداف الموضوعة، والوصول إلى الغايات المطلوبة، وهي الطريق إلى إدراك الأماني، ولا سيما في تحصيل العلم؛ فمن تحلّى بها لان له كل صعب، وسهل عليه كل عسير، وتيسر له كل مطلوب، وتحصَّل على كل مرغوب. وقد بلغ الشافعي في علو الهمة مبلغا كبيرا؛ حيث إنه طلب العلم بمكة على من كان فيها من الفقهاء والمحدثين؛ حتى أذن له بالفتيا شيخه مسلم بن خالد الزنجي، وقال له: "افت يا أبا عبد الله ، فقد آن لك أن تفتي". ولما سمع بالإمام مالك الذي ملأ ذكره الآفاق؛ عزم على الذهاب إليه، ولكنه لم يرد أن يذهب إلى المدينة خالي الوفاض حتى حفظ الموطأ، وقد ذهب بتوصية من والي مكة، فلما قرأ على الإمام مالك قال له:" يا محمد! اتق الله، واجتنب المعاصي؛ فإنه سيكون**

لك شأن، وإن الله تعالى قد ألقى على قلبك نورا؛ فلا تطفئه بالمعصية". وقد لازمه ست عشرة سنة حتى توفي.

**٤ – تعدد الشيوخ والرحلات العلمية:**

تميزت البيئات العلمية الرائدة بتعدد الشيوخ الذين يُتلقَّى العلم على أيديهم، وتنوُّع العلماء الذين يقصدهم طلاب العلم؛ وذلك نظرا لتعدد العلوم، وتنوع الفنون، ويعتبر هذا الأمر مألوفا في كتب السير والتراجم؛ حيث نجد للعالم الواحد شيوخا كثرين، تتلمذ على أيديهم، وأخذ العلم عنهم، وكذلك له تلاميذ كثر تتلمذوا على أيديهم، وأخذوا العلم عنه. وقد كان الشافعي من هؤلاء العلماء الذين تعددت شيوخهم، وتنوَّع الذين أخذ العلم على أيديهم، فمن شيوخه بالمدينة: الإمام مالك بن أنس، وإبراهيم بن سعد الأنصاري، وعبد العزيز الدراوردي، وإبراهيم بن أبي يحيى، وحمد بن سعيد بن أبي فديك، وعبد الله بن نافع الصائغ. ومن شيوخه باليمن: مطرف ابن مازن، وهشام بن يوسف قاضي صنعاء، وعمرو بن أبي سلمة صاحب الإمام الأوزاعي، ويحيى بن حسان. ومن شيوخه بالعراق: وكيع بن الجراح، وأبو أسامة حماد بن أسامة الكوفيان، وإسماعيل بن علية، وعبد الوهاب بن عبد المجيد البصريان.

وكانت الرحلات العلمية قديما عاملا أساسيا، ومطلبا ضروريا في طلب العلم وتحصيله، بل وزيادة التحصيل، والتمكن العلمي؛ لأن الرحلة في طلب العلم مهمة جليلة؛ حيث تُعتبَر إحدى أهَمّ أسباب اكتساب العِلم؛ ومن ثم أضحت الرحلةُ في طلب العلم مقصداً أساسياً؛ للازدياد من العلم وتعميقِه، وقد قالوا كلمتَهم المشهورة:(مَن لم يَرحَل فلا ثِقَةَ بعلمه). وكانوا يَعتبِرون الرحلة علامة على علم الرجل؛ وذلك لِما لَمَسُوه من فوائد الرّحلة وآثارها النافعة، وتكوين المواهب الشخصية، وتنميةِ الْمَدارِك العلمية، وتوسعة الآفاق الفكرية. والذي يرحل لطلب العلم يستطيع أن يُكثر من ملاقاة أهل العِلم الذين عُرفوا بغزارة العلم وتنوُّع المعارف، ويأخذ عنهم علمهم ومعارفهم، ويتحلَّى بفضائلهم وأخلاقهم، ويأخذ عنهم فوائد ربما لا يَحصُلها في الكتب سنين طويلة. أما الشافعي فقد أرشدته والدته إلى الترحال رغم فقرها، وكانت تشجعه للخروج لتلقي العلم، فسافر إلى اليمن مع مصعب بن الزبير، فيقول الشافعي: فلما قدمنا إلى اليمن عملت له عملا، ومازال يجتهد حتى جاوزت شهرته اليمن إلى مكة، وقد جاب الشافعي كثيرا من البلاد العربية بحثا عن العلم وتلقيا من العلماء؛ حيث تنقل بين فلسطين ومكة واليمن

والعراق ومصر، وكان أغلب هذه البلاد قبلة لطلاب العلم؛ حيث كانت مزدهرة بعلمائها، ومجالسهم العامرة، ومناظراتهم الزاهرة.

**٥ – التنوُّع العلمي والتنافس فيه :**

يمثل التنوع العلمي ميزة كبيرة بين طلاب العلم ومعلميه، وقد كان هذا التنوع سمة غالبة على علماء المسلمين في العصور الأولى؛ حيث امتازوا بالموسوعية، فلم يكن كثير منهم عالما متخصصا في فرع واحد من فروع العلم، بل كان موسوعيا؛ فقد ساعدتهم البيئة العلمية حينها على ذلك، ويسَّرت لهم الاطلاع على هذه العلوم، والأخذ بتلك الفنون. وقد كان الشافعي موسوعة حقا، ولديه تنوع علمي واسع فعلا؛ فقد كان بحراً في العلوم والمعارف؛ حيث نَهَل من مختلف الفنون؛ فكان حجة في اللغة، وهو الذي قال:" لولا الفقه لكنت أشعر من لبيد"، مع ضلوعه في الفقه، وكان أصوليا متمكنا، فهو الذي وضع أسس علم أصول الفقه في كتابه الرسالة، وهو حجة في علم التوحيد والعقيدة والفقه، وفي أيام العرب وتاريخهم وتاريخ الإسلام، وكان عالما بالفراسة. وفي ذلك يقول الشافعي:" ولا ينبغي للمُفتي أن يُفتي أحداً إلا أن يكون عالماً علم الكتاب وناسخه ومنسوخه، خاصه وعامه وأدبه، وعالماً بسنن رسول الله ﷺ . وأقاويل أهل العلم قديماً وحديثاً، وعالماً بلسان العرب، عاقلاً يميز بين المشتبه، ويعقل القياس". وقال الربيع بن سليمان: كان الشافعي يجلس في حلقته إذا صلى الصبح فيجيئه أهل القرآن، فإذا طلعت الشمس قاموا وجاء أهل الحديث فيسألونه عن تفسيره ومعانيه، فإذا ارتفعت الشمس قاموا، وحضر قوم للمناظرة، ثم يجيء أهل العربية والنحو والشعر والعروض إلى قرب انتصاف النهار ثم ينصرف.

كما يمثل التنافس العلمي أهمية كبيرة في العملية التعليمية؛ فهو الذي يضمن لها حيويتها، ويحقق لها فعاليتها، ويعمل على نشاط المتعلمين، ويحفزهم على المشاركة والإيجابية. ولقد حضّ الشرع الحنيف على التنافس في الخيرات؛ بهدف الوصول إلى أعلى الدرجات، قال تعالى:(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ) (المطففين:٢٦). ويعتبر التنافس العلمي أسلوبا تربويا مهما، ينبغي استخدامه مع أولادنا داخل الأسرة وخارجها، وفي الأنشطة الحياتية عامة بشكل تربوي سليم، وتوظيفه بصورة صحيحة؛ من أجل تحقيق أفضل النتائج. وبالنظر إلى طبيعة العصر الذي كان يعيش فيها الإمام الشافعي، والبيئات العلمية التي رحل إليها، والبلاد العربية التي تنقل بينها؛ نلاحظ أن التنافس العلمي المحمود كان على أشده بين

علماء العصر وطلابه، وهذا كان موجودا بشدة، وملاحظا بقوة في بلاد الحجاز، وفي مدن العراق، وفي مصر، ولا شك أن هذا التنافس يثري العلم، ويحفِّز طلابه، ويشجع على الزيادة في الطلب، ويصل بالمتعلم إلى التمكن العلمي، ولا أدل على ذلك من أن المناظرات بين العلماء كان سمةً غالبةً على هذا العصر.

## ثانيا: ملامح الفلسفة التربوية عند الإمام الشافعي:

تحتلُ فلسفة التربية المركز الأول في العملية التربوية، ومن هذه الفلسفة تنبثق أهداف التربية ومناهجها ومؤسساتها وطرقها ووسائلها في التعليم؛ لذا تتأثر الأهداف والمناهج والتطبيقات التربوية بفلسفة التربية. ولا ينبغي دراسة الفلسفة التربوية بمعزلٍ عن طبيعة العصر، وعن الفلسفة العامة للمجتمع؛ لذا فسوف يتم تناول الفلسفة التربوية للشافعي في ضوء طبيعة عصره، والعوامل المؤثرة في تكوينه، ومدى الاستفادة من اجتهاداته العلمية، وأفكاره التربوية وآرائه التعليمية في الحقل التربوي والعملية التعليمية. وتتمثل أهم ملامح الفلسفة التربوية عند الإمام الشافعي فيما يلي:

### ١ – هدف التربية والبيئة التعليمية:

تعتبر الأهداف التربوية مصدرا رئيسا لتوجيه العملية التعليمية؛ حيث إنها تسهم في تحديد المحتوى، ومواقف التعليم، وطرق التدريس، والوسائل التعليمية، وأساليب التقويم، وجودة التعليم، وكفاءة المعلم. وبالنظر إلى الإمام الشافعي فقد وضع لنفسه هدفا تربويا منذ البداية؛ حيث أراد أن يكون عالما فقهيا، فانتهت إليه رئاسة الفقه والفتيا بعد موت شيوخه، وجمع بين مدرستي الرأي والحديث؛ حتى ذاع صيته في الآفاق. ولم يكن الشافعي منظرا نظريا فقط، ولم تكن التربية عنده ترفا علميا، ولا بد من ارتباط هذه التربية بقضايا الواقع واحتياجات المجتمع، فقد أكد على قيمة العلم؛ حيث يقول:" من أراد الدنيا فعليه بالعلم، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم؛ فلا تسكن بلداً لا يكون فيه عالماً يفتيك عن دينك، ولا طبيب يُنبئك عن أمر بدنك". ويقول أيضا:" مَنْ تَعلَّم القرآن عَظُمت قيمتُه، ومن كتب الحديث قويت حُجَّتُه، ومن نظر في الفقه نَبُل قَدرُه، ومن نظر في اللغة رقَّ طبعُه، ومن نظر في الحساب جَزُلَ رأيُه، ومن لم يَصُن نفسه لم ينفعه علمه".

وينبغي التأكيد على أنه لا بد لنجاح العملية التعليمية من توفر عدة متطلبات ومجموعة من المقومات، ومنها توفر البيئة التعليمية الملائمة، وهي تلك البيئة المحيطة بعملية التعلم،

والتي ينبغي أن تكون بيئة تفاعلية إيجابية مهيأة متكاملة؛ مما يسهم إسهاما كبيرا في جعل بيئة التعليم بيئة مواتية للعملية التعليمية، ومناسبة لزيادة التحصيل الدراسي، ومهيأة لكلٍ من الطلاب والمعلمين على حد سواء. وقد حرص الشافعي على أن تكون البيئة التعليمية بيئة إيجابية تفاعلية بين الشيخ وتلاميذه، تتسم بالحرية والديمقراطية والتعبير عن الرأي دون استحياء للطلاب من جانب زملائه، أو خوف منه من جانب شيوخه ومعلميه: فقد كان ضد العقاب في العملية التربوية، ولا يراه مناسبا للآدميين، ولا ملائما للتلاميذ، وفي ذلك يقول:" ومعلم الكُتَّاب والآدميين كلهم مخالف لراعي البهائم وصُنّاع الأعمال؛ والآدميون يؤدبون على الصناعات بالكلام، فيعقلونه وليس هكذا مؤدب البهائم". ويقول مواسيا التلميذ الذي قد يضحك عليه زملاؤه في مسألة ما:" ومن ضُحك منه في مسألة لم ينسها". ويقول مؤكدا على الكلمة الطيبة من جانب المعلمين:" إن الأفئدة مزارع الألسن، فازرع الكلمة الكريمة؛ فإنها إن لم تنبت كلها نبت بعضها".

**٢ – المعلم والطالب:**

أكد الشافعي على أهمية المعلم وقيمته، ومكانته في العملية التعليمية؛ فيؤكد أنه لا تعليم حقيقي بدون وجود معلم كفؤ قدوة، وينبغي على المتعلم أن يطوي المسافات الطويلة، ويتنقل بين البلاد القريبة والبعيدة؛ طلبا للعلم الصحيح، وبحثا عن العلماء الربانيين الراسخين؛ لذا قال:" من تفقَّه من بطون الكتب ضيَّع الأحكام". وقال لمؤدب أبناء هارون الرشيد(أبي عبد الصمد): ليكن أول ما تبدأ به من إصلاح أولاد أمير المؤمنين إصلاحك نفسك، فإنَّ أعينهم معقودة فيك؛ فالحسن عندهم ما تستحسنه، والقبيح عندهم ما تركته، علمهم كتاب الله ولا تُكرِهم عليه فيملوا، ولا تتركهم فيهجروه، ثم روّهم من الشعر أعفه، ومن الحديث أشرفه، ولا تخرجنهم من علم إلى غيره حتى يحكموه، فإن ازدحام الكلام في السمع مضلة للسمع". وقد ركز الشافعي في هذا النص على قدوة المعلم، وضرورة تحليه بالصفات الحسنة التي تجعل منه قدوة للمتعلم، وأن المتعلم يتأثر بالأفعال والممارسات أكثر مما يسمع من أقوال.

كما أكد الإمام على ضرورة توفر متطلبات معينة، ومواصفات محددة في طالب العلم والمتعلمين؛ وذلك من حيث إخلاص النية في الطلب، والتحلي بالصبر، والصدق والموضوعية، وعلو الهمة، والتركيز؛ حيث يقول:"استعينوا على الكلام بالصمت، وعلى الاستنباط بالفكر". ولا شك أن تركيز الطالب في العملية التعليمية هو شرط أساسي في التحصيل الدراسي، والحصول

على المعلومات، وأنَّ شرود الذهن عند المتعلمين يَحُول دون الاستفادة المرجوة. ويؤكد الشافعي على ضرورة استعداد الطالب المادي والنفسي لعملية التعليم، وتجهيز ما يلزمه من أدوات تعليمية ومستلزمات مدرسية، وفي ذلك يقول: "من حضر مجلس العلم بلا محبرة وورق كان كمن حضر الطاحون بغير قمح". كما اهتم بالصحة النفسية للنشء منذ الصغر؛ حيث ركّز على صحة الطفل منذ نعومة أظافره، وقد دعا إلى الإرشاد الأسري، وذلك من خلال ما كان يحكيه عن نفسه ليكون موجهاً ومرشداً لغيره، حيث قال:" كنت يتيماً في حجر أمي ولم يكن معها ما تعطي المعلم، وكان المعلم قد رضي مني أن أخلفه إذا قام".

**٣ – المنهج الدراسي وطرق التدريس:**

يمثل المنهج الدراسي أهمية كبيرة في العملية التعليمية؛ لأنه يحتوي على المعلومات والمعارف التي ينبغي أن يتعلمها الطلاب، وتتناقلها الأجيال عبر العصور المختلفة، مع الإضافة إليها حسب طبيعة كل عصر، وليناسب كل مصر، وقد تزايد الاهتمام بالمنهج الدراسي في الآونة الاخيرة؛ نتيجة لما حدث من تطورات علمية وتقنية متسارعة في شتى المجالات، ولاسيما في المجال التربوي، مما أدى إلى تطويره في مفهومه، وأسسه، وأشكاله، وعناصره، وتنظيماته؛ وذلك لضمان مسايرة المتعلمين للجديد في العلم. وقد أكد الإمام الشافعي على التدرج في التعليم لدى الناشئة بأخذ الأيسر والأسهل من المتون والشروح، فالمتوسط منها، ثم الأكثر شرحا وتفصيلا وتعقيدا، والبدء بالأهم فالمهم فالأقل؛ حيث يكون البدء في التعليم بحفظ القرآن الكريم، ودراسة الحديث الشريف، وتعلم الأحكام الفقهية، وإتقان اللغة العربية، وراوية الشعر العربي العفيف الذي لا يثير الغرائز الكامنة، وفي ذلك يقول مخاطبا المعلم:" ولا تُخرجنّهم من علمٍ إلى غيره حتى يحكموه؛ فإن ازدحام الكلام في السمع مضلة للسمع".

كما تمثل طرق التدريس أهمية بالغة في العملية التعليمية؛ فمن خلالها يقوم المعلم بنقل محتوى المواد الدراسية إلى طلابه، وتوضيح المفاهيم، وتثبيت المعلومات، وتسهم في تحسين عملية التعلم، وتعمل على مراعاة الفروق الفردية بين الطلاب، ومراعاة مستويات جميع الطلاب، وتصميم المحتوى التعليمي بما يلبي احتياجاتهم، وتتيح فرصة التفاعل مع المكونات الطبيعية في البيئة، وتعمل على إضافة عنصر المتعة والتشويق للعملية التعليمية. ويؤكد الإمام الشافعي على أن دور المعلم الناجح يكون من خلال إبداع طرق تُحفِّز المتعلم على

التعلم، وتشجعه على الطلب، وإيجاد الدافعية عنده، وزيادة التحصيل لديه، ولقد كان يُطبق ذلك في منهجيته أثناء التدريس، قال الربيع بن سليمان:" لو رأيتم الشافعي وحسن بيانه، وفصاحة ألفاظه لتعجبتم، إلا أنه كان يجتهد في مصنفاته في الإيضاح وتقريب المعاني إلى الأفهام". وقد كان يحرص على تسهيل العلم، والتأكد من توصيله إلى طلابه، حتى لو كان بتكراره أكثر من مرة؛ حتى يفهم الجميع، وفي ذلك يقول لصاحبه الربيع:" لو قدرت أن أطعمك العلم لأطعمتك". ثم ينبّه إلى ضرورة اللين وعدم الشدة في توصيل العلم، أو إكراه المتعلم على التعليم؛ لأن الإكراه يولّد النفور، ويوقع في السآمة؛ فيحدث نقيض المقصود؛ مما يؤدي إلى ترك التلميذ طلب العلم بالكلية.

**٤ – الاهتمام بالعلم والعقل واللغة العربية:**

حرص الإمام الشافعي حرصا شديدا على طلب العلم منذ صغره ونعومة أظافره، رغم يتمه وفقره وضيق ذات يده؛ وكان مدفوعا في ذلك من أمّه العاقلة الذكية، والتي رفضت الزواج بعد موت أبيه قائلة له:"يا بنيّ، مات أبوك وإننا فقراء، وليس لنا مال، وإني لن أتزوج من أجلك، وقد نذرتك للعلم، لعلّ الله أن يجمع بك شمل هذه الأمة". وقد أثمر ذلك في حياة الشافعي بإتقانه مجموعة من العلوم والفنون، كالقرآن الكريم، والحديث الشريف، والفقه وأصوله، واللغة والشعر وغيرها، وانعكس كذلك على فلسفته التربوية؛ لدرجة أنه كان يجلس من بعد صلاة الفجر إلى قرب صلاة الظهر(ست ساعات) في حلقات متواصلة متنوعة بين القرآن الكريم، والحديث الشريف، والفقه وأصوله، واللغة والشعر. أما عن العقل الذي هو وسيلة الحصول على العلم وتحصيله، فقد قيل له: أخبرنا عن العقل يولد به المرء؟ فقال: "لا ولكنه يُلقَّح من مجالسة الرجال ومناظرة الناس". وقد رحب الشافعي بالاجتهاد، واحتفى بإعمال العقل، وعرض آراء المخالفين له، ومناقشة حُجَجِهِم، وتنويع طرائق عرض أفكاره، وذلك كله يصبُّ في الاهتمام بالعقل.

وتمثل اللغة العربية عنصرا مهما، ومقوما أساسيا من مقومات الهوية الإسلامية؛ حيث إنها تجمع المتكلمين بها، وتؤثر في طريقة تفكيرهم، وتعمل على تقارب وجهات النظر بينهم، كما أنها تعدّ رابطة اجتماعية قوية بين المتحدثين بها؛ حيث إنها تعمل على توحيد عاداتهم وتقاليدهم، وتأصيل قيمهم الاجتماعية، بالإضافة إلى أنها تعتبر أداة لحفظ ذاكرة الأمة، ووسيلة لحفظ تاريخها وتراثها، ونقله عبر الأجيال المتلاحقة والعصور المتعاقبة؛ وذلك من

أجل وصْلِ حاضر الأمة بماضيها، وامتدادا إلى رسم مستقبلها. ولقد عُني الإمام الشافعي باللغة العربية أيَّما عناية، واهتم بها اهتماما خاصا؛ حيث لحق بقبيلة هذيل لتعلم اللغة والفصاحة، وقد أقام بها مدة طويلة، جعلته يتقن اللغة، ويحفظ الأشعار والأنساب، وكان لهذه الملازمة أثر في فصاحته وبلاغة ما يكتب، حتى إن الأصمعي وهو من أئمة اللغة المعدودين يقول: "صححت أشعار هذيل على فتى من قريش يقال له محمد بن إدريس". ومن ثم فإن الشافعي كان يركز على تعليم اللغة العربية، ويرى ذلك مهما وضروريا لفهم كتاب الله تعالى وسنة نبيه ـ ﷺ؛ حيث كان طلاب العربية ومريدوها يأتون إليه في المسجد بعد أن ينتهي من تعليم القرآن والسنة والفقه؛ فيأخذون عنه اللغة والنحو والعروض والشعر، فهي ليست مجرد ناقل للمعارف والمعلومات، وإنما هي رؤية للوجود والعالم، واستقامة اللسان تعني استقامة التفكير.

**٥ – الفروق الفردية والأساليب التربوية:**

تعد الفروق الفردية ظاهرة واقعية، وواقعا ملموسا في العملية التعليمية، وهي تلك الخصائص والسمات التي يتميز بها كل إنسان عن غيره، سواء أكانت تتعلق بالنواحي الجسمية أو العقلية أو الاجتماعية أو الانفعالية، أو الخلقية، وهي ركيزة أساسية في تحديد المستويات العقلية والأدائية الراهنة والمستقبلية للأفراد؛ لذا فقد أصبحت الاختبارات العقلية وسيلة مهمة تهدف إلى دراسة احتمالات النجاح أو الفشل العقلي في فترة زمنية مستقبلية.

وقد كان الشافعي يرى مراعاة التدرج حسب المراحل العمرية والنمائية؛ حيث يقول في ذلك:" الناس في العلم طبقات، موقعهم من العلم بقدر درجاتهم في العلم به، فحق طلبة العلم بلوغ غاية جهدهم في الاستكثار من علمه، والصبر على كل عارض دون طلبه، وإخلاص النية لله في استدراك علمه نصاً واستنباطاً، والرغبة إلى الله في العون عليه، فإنه لا يدرك خير إلا بعونه". وقد راعى الفروق الفردية في تدريسه لتلاميذه، وفهم نفسياتهم، كما راعاها مع مستفتيه في فتاويه؛ ومن الأدلَّة على تبنيّه أهمية الفروق الفردية، وضرورة عرضها فكراً وتطبيقاً؛ أنه كان يكلِّم طُلابه على قدر ما يفهمونه عنه.

وتمثل الأساليب التربوية أهمية كبيرة؛ حيث تهدف إلى الارتقاء بالمتربين وإرشادهم، وتوجيههم الوجهة السليمة، مراعية للفروق الفردية بينهم، وعلى درجة عالية من المرونة. وهذه الأساليب متعددة، ويمكن أخذ أسلوبين منها، وهما: الأول: أسلوب الحوار والمناظرة،

وقد أُشتهر الإمام الشافعي بالمناظرة، وتميَّز بها، وبرز فيها، فقد حباه الله تعالى ذكاء وفطنة، وأعطاه قدرة فائقة على الإقناع بالحجة الدامغة، والأدلة والبراهين؛ حيث اتخذ من المناظرة طريقاً لشَحذ الهِمَم، وإثارة الروح العلمية، وتهيئة الجو العلمي النابض بالحركة. وقد قيل للشافعي: من أقدر الناس على المناظرة؟ فقال:" من عوَّد لسانه الركض في ميدان الألفاظ، ولم يتلعثم إذا رمقته العيون بالألحاظ، ولا يكون رخي البال قصير الهمة؛ فإن مدارك العلم صعبة لا تنال إلا بالجهد والاجتهاد، ولا يستحقر خصمه لصغره، فيسامحه في نظره، بل يكون على نهج واحد في الاستيفاء والاستقصاء؛ لأن ترك التحرز والاستظهار يؤدي إلى الضعف والانقطاع". وقال أيضا:" أحسن الاحتجاج ما أشرقت معانيه، وأُحكمت مبانيه، وابتهجت قلوب سامعيه".

ويتمثل الأسلوب الثاني في القصة، وهي إحدى الأساليب التربوية المشوقة التي تُسهم في جذب انتباه الطلاب، ويجدون في سرد أحداثها المُتعة والتشويق، كما أنَّها تكسبهم معلومات وحقائق كثيرة، وتوصِّل الرسائل التعليمية بأسلوب سهل وبسيط، فهي تُتيح فرصة أكبر للفهم والاستيعاب، وتساعد الطالب على توسيع مداركه. وقد استخدم الشافعي أسلوب القصة على قلةٍ، إلا أنها ذات قيمة عالية؛ فإن قصص الشافعي عن طلبه للعلم في طفولته وشبابه من القصص التعليمية الجيدة في الأدب العربي، وكذلك محنته وأزمته السياسية في اليمن من جهة، وما حصل له في رحلاته من مواقف طريفة من جهة أخرى.

وفي الختام؛ ينبغي التأكيد على أنه توجد مجموعة من العوامل التي أثَّرت في التكوين العلمي للإمام الشافعي، والتي تمثِّل أهمها في: الدعم الأسري وتوفر البيئة العلمية، وتحديد الهدف ووجود الدافعية، والمؤهلات الشخصية وعلو الهمة، وتعدد الشيوخ والرحلات العلمية، والتنوع العلمي والتنافس فيه؛ وقد أدت هذه العوامل مجتمعة إلى تحديد ملامح الفلسفة التربوية للشافعي، وقد تمثَّلت أهم هذه الملامح في: هدف التربية والبيئة التعليمية، والمعلم والطالب، والمنهج الدراسي وطرق التدريس، والاهتمام بالعلم والعقل واللغة العربية، ومراعاة الفروق الفردية واستخدام الأساليب التربوية.

## من مراجع الورقة العلمية

أبو سليمان، عبد الوهاب(١٩٩٩). منهجية الإمام محمد بن إدريس الشافعي في الفقه وأصوله، دار ابن حزم، القاهرة.

أبو شوشة، محمد ناجح (٢٠٠٨). التراث التربوي في المذهب الشافعي، مطبعة العلم والإيمان، القاهرة.

أبو زهرة، محمد(١٩٤٨). الشافعي حياته وعصره آراؤه وفقه، ط٢، دار الفكر العربي، القاهرة.

أبو طالب، خليل محمد، وبدر، محمد ملك(١٩٨٩).السبق التربوي في فكر الشافعي، ط٢، الهيئة العامة للتعليم، الكويت.

البيهقي، أحمد بن الحسين(١٩٧٠). مناقب الشافعي، تحقيق: أحمد صقر، دار التراث، القاهرة.

التميمي، عز الدين الخطيب(٢٠٠١). آثار المذهب الشافعي في العالم الإسلامي، المنظمة الإسلامية للتربية، بيروت.

الجعب، نافذ بن سليمان(٢٠١٦). مقومات الشخصية الإسلامية في الفكر التربوي الإسلامي للإمام الشافعي، مجلة الجامعة الإسلامية للدراسات التربوية، ٢٤(٢): ٨٤–١٠٤.

الجندي، عبد الحليم (١٩٧٧). الإمام الشافعي ناصر السنة وواضع الأصول، دار المعارف، القاهرة.

الخضري، حمد(١٩٦٨). تاريخ التشريع الإسلامي، ط٨، دار الفكر، القاهرة.

الزحيلي، محمد(٢٠٠٩). الشافعي واضع علم أصول الفقه، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الشارقة، الإمارات.

الزهيري، عبدالله محسن(٢٠٠٧). محمد بن إدريس الشافعي: مفكرا تربويا، مجلة جامعة الأنبار للعلوم الإنسانية، كلية التربية، جامعة الأنبار، ع(٦): ٣١٨–٣٣٩.

الشافعي، الإمام محمد إدريس(١٨٩٤). الرسالة، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت.

الشافعي، الإمام محمد إدريس (١٩٩٠). الأم، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ج٦، دار المعرفة، بيروت.

الشافعي، الإمام محمد إدريس(٢٠٠١). الأم، تحقيق: رفعت فوزي عبد المطلب، دار الوفاء، القاهرة.

عبيد، دلال كاظم(٢٠١٦). القيم التربوية عند الإمام الشافعي من خلال شعره، مجلة البحوث التربوية والنفسية، مركز البحوث التربوية والنفسية، جامعة بغداد، ٤٩: ٣٦٢–٣٨٢.

علوان، نعمات شعبان(٢٠١٢). القيم التربوية المتضمنة في ديوان الإمام الشافعي، مؤتمر الإمام الشافعي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأقصى، ٦– ٢٠١٢/٥/٨، ج٣، فلسطين.

فخر الدين الرازي(١٩٨٦). مناقب الإمام الشافعي، تحقيق أحمد حجازي السقا، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.

الفرا، إسماعيل صالح، العوضي، رأفت محمد(٢٠١٢). الفكر التربوي عن الإمام الشافعي وأسس توظيفه في الواقع التربوي المعاصر، مؤتمر الإمام الشافعي، المؤتمر العلمي الدولي الرابع، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأقصى، غزة.

الكندري، لطيفة حسين، وملك، بدر محمد، الصالحي، محسن حمود(٢٠١٠): المضامين التربوية لفكر الإمام الشافعي في ضوء المعطيات المعاصرة، المجلة التربوية، كلية التربية، جامعة سوهاج، ٢٨(٢٨): ١٨٥–٢٣٨.

الكيلاني، ماجد عرسان مكتبة المنارة(٢٠٠٩). فلسفة التربية الإسلامية، دار المنارة، جدة.

ملكاوي، فتحي حسن(٢٠١٨). التراث التربوي الإسلامي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة.